الله فى العبادات منذ فجر التاريخ

نزلت عقيدة التوحيد كاملة على آدم وعلمه ربه الأسماء كلها منذ الخلق الأول . . ولهذا لا يصح القول بتطور الأديان من ناحية تنزلها الربانى لأنها لأنها وحى منزه لا يحتمل النقص وعلم إلهى نزل كاملا من بدايته .

والذين يتكلمون عن تطور الأديان يقصدون بذلك شيئاً آخر هو معرفة الله اجتهاداً وبالعقل الذى يخطئ ويصيب . . ومثل تلك المعرفة كان لها بالفعل تاريخ وتطور . . وهى غير المعرفة الأخرى الثابتة التى جاء بها الأنبياء . . ولقد نزل الوحى بين فترة وأخرى لإصلاح ما أفسده العقل وما أدخلته الأهواء على تلك المعارف .

ومنذ فجر التاريخ ، وقبل أن يعرف الإنسان كيف يطهو طعامه ، وكيف يبنى لنفسه بيتاً ، أحس أنه لا بد أن يعبد شيئاً ، ولا بد له أن يبنى لهذا المعبود بيتاً .

كانت العبادة ضرورة أولى مثل ضرورة الحصول على الطعام والحصول على المأوى .

أدرك الإنسان البدائى بوجدانه أن روحه فى حاجة إلى عقيدة تأوى إليها .

كانت روحه ترتجف جوعاً إلى إيمان مثل جسده الذى يرتجف جوعاً

إلى اللقمة والأمان .

وكما أنه لم يستطع أن يعرف ما تخفيه الأرض حوله من أسرار وطاقات كالكهرباء والبخار من أول خطوة ، كذلك لم يستطع أن يعرف حقيقة ذلك الإله المعبود اجتهاداً وبالعقل من أول وهلة وإنما اكتشفه عبر رحلة طويلة من التجربة والخطأ تماماً كما حدث فى اكتشافه مكنونات الطبيعة .

فكما ظن فى البداية أن الشمس تدور وأن الأرض ثابتة . . وكما ظن أن البرق عفريت . . كذلك ظن أن أباه الميت الذى يظهر له فى الحلم هو الله . . فعبَده وذبح له القرابين واتخذ من قبره محراباً ومزاراً .

وتطورت عبادة الأسلاف لتصبح عبادة ثابتة .

وأصبح لكل قبيلة جد قديم تجعل منه إلهها ورمزها المعبود .

ثم بدأ الإنسان البدائى يتصور أن روح هذا الجد يمكن أن تحل فى حيوان أو شجرة . . فانتقل إلى عبادة الحيوانات والأشجار . . وأصبح لكل قبيلة حيوانها الخاص الذى تعبده (الطوطم) . . وهو مرة طائر ومرة ثعلب ومرة أسد ومرة عجل أبيس ومرة بقرة ومرة شجرة تين عتيقة .

وكانت هذه النقلة إلى إله متجسد يلمس باليد أسهل على عقل البدائى من عبادة روح مجردة بلا شكل وبلا جسم .

والذين احتفظوا بعبادة الأسلاف والأجداد صنعوا لهؤلاء الأجداد تماثيل وأصناماً ترمز إليهم مثل اللات والعزَّى وهُبل حتى تكون لمعبوداتهم

أجسام تُلمس ومواقع تُزار .

والبعض اتجه بعبادته إلى حيث يتصور مواقع القوة فى الطبيعة فعبَد الرياح والزوابع والرعد والبحر والكواكب والنجوم والنار .

وهكذا تعددت الأرباب بقدر تعدد حاجات الإنسان الهمجى ومخاوفه . . فهو يعبد ربًّا للأمطار وربًّا للحروب وربًّا للتناسل وربًّا للخصب وربًّا للبحر وربًّا للرياح .

ثم تلخصت هذه الكثرة من الأرباب فى إلهين اثنين . . إله للخير وإله للشر . . مثل فشنو وسيفا عند الهنود . . وهرمز وأهرمن عند الفرس .

ثم ظهرت فكرة الإله الواحد ممثلة فى الشمس ، أكبر ما ترى العين فى السماء . . الإله « رع » عند الفراعنة .

وفى اليونان « زيوس » كبير آلهة الأولمب الذى جعل من باقى الآلهة أرباباً صغاراً يعملون فى خدمته ويدينون له بالولاء والطاعة .

وكانت أول خطوة نحو توحيد حقيقى لرب مجرد تمام التجريد ، هى الخطوة التى حققها أخناتون فيلسوف الفراعنة بحق .

وقد ورث أخناتون عبادة الشمس عن أجداده ، وما لبث أن ثار على تلك العبادة الشمسية مقرراً أن الشمس ما هى إلا مخلوقة هى الأخرى ، وأن الخالق الجدير بالعبادة هو القوة التى أبدعتها . . وجعل من قرص الشمس مجرد رمز لتلك القوة الواحدة المستترة . . آتون . . الواحد القادر على كل شىء .

ويقول هيرودوت إن المصريين كانوا أول الموحدين فى العالم ، وإن بقية العالم أخذ الدين عنهم . . فأخذت الهند شعائرها . . واليونان

عقائدها من مصر .

وكانت بداية هذا التوحيد فى عصر أمنحوتب الثالث فى تلك الترنيمة المحفورة على لوحة بالمتحف البريطانى . . . وهى فى صورة ابتهال ومناجاة للإله :

أيها الصانع الذى صورت نفسك بنفسك وصنعت أعضاءك بيديك .

أيها الخالق الذى لم يخلقك أحد .

الوحيد المنقطع القرين فى صفاتك .

والراعى ذو القوة والبأس .

والصانع الخالد فى آثاره التى لا يحيط بها حصر .

ويصل هذا التوحيد إلى ذروة فى النقاء والتجريد على يد أخناتون . . فنقرأ فى أنشودته الخالدة لآتون هذه السطور الملهمة :

يا آتون الحى يا بدء الحياة .

إنك بعيد متعال .

ولكنك تشرق على وجوه الناس .

إنك تمنح الحياة للجنين فى بطن أمه .

وتعنى به طفلاً .

وتسكن روعه فلا يبكى .

وتفتح فمه وتعلمه الكلام .

وتدبر له ما يحتاج إليه فى حياته .

وتعلم الفرخ كيف يثقب بيضته ويخرج .

وما أكثر مخلوقاتك .
يا واحد يا أحد ولا شبيه لك .
لقد خلقت الأرض حسبما تهوى .
خلقتها وحدك ولا شريك لك .
وخلقت ما عليها من إنسان وحيوان .
ودبرت لكل مخلوق حاجاته .
وقدرت له أيامه المعدودة .
وجعلت الناس أمماً وقبائل ولغات متعددة .
وجعلت لهم الشتاء ليتعرفوا على بردك .
والصيف ليذوقوا حرارتك .
وصورتهم فى بطون أمهاتهم بالصور التى تشاء .
وأنزلت لهم الماء من السماء .
ليجرى أمواجاً تتدافع وتروى حقولهم .
ما أعظم تدبيرك يا سيد الأبدية .
إنك فى قلبى .
وليس هناك من يعرفك .
غير أبنك الذى ولد من صلبك .
ملك مصر العليا والسفلى .
الذى يحيا فى الحق .
سيد الأرضين أخناتون .
وقد كانوا يعلمون أطفالهم فى مصر أن الإنسان خلق من طين ،

وأن الإله هو الذى سوّاه . . . كما نقرأ أنهم كانوا يحرّمون لحم الخنزير.

وفى كتاب الوصايا نعثر على تعاليم أخلاقية رفيعة نقتبس منها هذه السطور :

* احذر من الاقتراب من النساء فى أى مكان تدخله ، فقد انحرف ألف رجل عن جادة الصواب بسبب ذلك . . إنها لحظة قصيرة كالحلم والندم يتبعها .

* لقد سمعت بأنك تجرى وراء ملذاتك وتذهب من شارع إلى شارع تفوح رائحة الخمر من فمك . . إن الخمر تنفر الناس منك ، وتودى بك إلى الهلاك ، وتجعلك كدفة مكسورة فى سفينة لا تفيد فى التوجيه إلى يمين أو يسار .

* لا يداخلك الغرور بسبب علمك ولا تختال وتنفخ أوداجك لأنك عالم ولا تحتقر الناس . . فقد تنفعك مشورة من رجل جاهل . . وما من أحد قد بلغ الغاية من العلم بحيث يستغنى عن غيره .

* هدئ من روع الباكى ، ولا تظلم الأرملة ، ولا تحرم إنساناً من ثروة أبيه .

* لا تقتل رجلاً إذا كنت تعرف جميل مزاياه .

* لا تقل « ليست لى خطيئة » وتشغل نفسك بالتفكير فى خطايا الناس . . فالله وحده هو المختص بالحكم فى خطايا الناس وهو الذى ختم على أقدارهم بأصبعه .

* لا ترقد خائفاً مما يأتى به الغد فالله يحقق دائماً ما يريد .

* لا تتخذ الرجل سريع الغضب لك صاحباً .

* ضاعف الخبز الذى تعطيه لأمك واحملها كما حملتك .

لقد حملتك تسعة شهور فى بطنها وظلت مغلولة بك وظل ثديها فى فمك مدى ثلاث سنوات . . وبالرغم من أن قاذوراتك شيء تتقزز منه النفس فإن قلبها لم يتقزز ولم تقل . . ماذا أفعل بتلك القاذورات .

* لا تميز بين شخص ذى حيثية وشخص فقير بل عامل كل إنسان بحسب عمل يديه .

* إذا جلست على الأكل مع أشخاص كثيرين فلا تقبل كثيراً على الطعام حتى ولو كنت تشتهيه فإنه من المخجل أن يكون الإنسان شرها .

* إن كأساً واحدة من الماء تروى الظمأ ولا فائدة من الإفراط فى الشراب فلن يقوى هذا قلبك .

كان هذا حال مصر . . ذروة فى التوحيد والتجريد . . وكمال فى تصور الألوهية . وسمو فى المنهج الأخلاق والسلوك الفردى والاجتماعى بينما العالم حولها غارق فى عبادة الأسلاف والأجداد والطواطم والأصنام والأرباب الثنائية .

* * *

ثم ظهر زرادشت فى فارس (٦٦٠ سنة قبل الميلاد) ليجد الديانة الفارسية موزعة بين عبادة « هرمز » إله الخير « وأهرمن » إله الشر فأدخل التوحيد لأول مرة فى الفكر الدينى ، وقصر العبادة على رب واحد . ونزل بإله الشر إلى مرتبة المخلوق الضعيف الذى ينازع الله سلطانه ، دون أن تكون له غلبة أوشأن .

والله عند زرادشت موصوف بأكمل الصفات . . فهو الكريم

الشافى من الأمراض ، المنقذ من البلايا والكروب ، الخالق الجواد بالنعم والخيرات .

وهو قد خلق الدنيا على ست مراحل . . السماء ثم الماء ثم الأرض ثم النبات ثم الحيوان ثم الإنسان .

والموتى يبعثون ويحاسبون . . وتوزن أعمالهم . . الأخيار يرفعون إلى السماء والأشرار يقذفون إلى الهاوية . . ومن تتعادل حسناتهم وسيئاتهم لا يعذبون ولا ينعمون وإنما يقضون حياتهم فى انتظار قيام الساعة حينما يؤخذ الكل ويقذفون إلى النار المقدسة ليطهروا ثم يرفعوا جميعاً إلى أعتاب الإله الرحيم الغفار .

والنــار تقدس عند زرادشت باعتبارها أطهر المخلوقات لا باعتبارها إلهاً يعبد .

والروح تخلق لكل إنسان قبل أن يخلق جسده .

وقد كان زرادشت هو نبى الفرس بحق ، كما كان أخناتون هو فيلسوف الفراعنة ، وكان محطم الأصنام والأوثان بالنسبة للديانة الفارسية ورافع راية التوحيد بين ربوعها .

وبعد مائة سنة من وفاة زرادشت يظهر بوذا فى الهند ليجد الهند موزعة بين عبادة إله الخير « فشنو » وإله الشر « سيفا » هذا عدا أسره من الأرباب الصغار يتداولون الحكم . . فيرفض فكرة تعدد الأرباب كما يرفض الرب الواحد الممثل فى ذات إلهية . . ويقول « بالمطلق » أو « الكل » الذى لا يَبعث من موت ولا يُحاسب ولا يعاقب . . وإنما تتم المخلوقات دورتها متناسخة من صورة إلى صورة حتى تبلغ ذروة

تطورها فى الإنسان الكامل « البوذا » ثم بعد ذلك تفنى فى « المطلق » فى « الكل » وهذا الفناء فى المطلق تسميه البوذية « بالنيرفانا » وتصفه بأنه ذروة السعادة لأنه التحرر من كل القوالب والأشكال ، والخروج من حياة القيد إلى حياة الإطلاق . . وإذا اكتمل الإنسان بهذا المعنى وأصبح « بوذا » فإنه لا يعود بعد موته إلى الأرض أو السماء فى أى صورة أو جسد ، ولا يتناسخ فى أى شكل من أشكال المخلوقات السفلية أو العلوية ، وإنما يتخلص من لعنة التناسخ إلى الأبد .

وبلوغ هذه الرتبة من الكمال فى نظر بوذا لا يكون إلا بالتخلص من أسر الشهوات والرغبات ، ومن أهواء النفس ومطالبها ، وذلك بإخضاعها لناموس العقل والحكمة والاعتدال .

وكما أنكرت البوذية الذات الإلهية ، كذلك وقعت فى التناقض بين قولها بالتناسخ وبين ما تدعيه من إنكار ذات الإنسان وروحه . . ولم تستطع أن تفسر كيف يتناسخ الإنسان فى عدة شخوص وصور ، ويعود إلى الميلاد مرات ومرات . .

وما الذى يبقى منه كل مرة ليتناسخ به إذا لم تكن له ذات أو روح .

ومن الذى يقضى عليه بلعنة التناسخ والعودة إلى الميلاد إذا لم تكن ذاتاً إلهية تحاسب وتعاقب .

ويقول البوديون إنهم استبدلوا فكرة الذات الإلهية . بفكرة القانون « الكارما » . فالإنسان يولد من جديد بحكم قانون صارم هو التكفير عن ذنوبه « فكل ذنب يترك أثراً وكل أثر يدعو إلى كفارة »

ولم يقل لنا البوذا من الذى وضع هذا القانون الصارم وألزم به المخلوقات إن لم يكن خالقاً له ذات إلهية .

وكان واضحاً أن بوذا فى ديانته يريد أن يتجنب الخوض فى مسائل الغيب وما وراء الطبيعة ويريد أن يبتكر ديانة بدون « ميتافيزيقا » فاستبدل فكرة الذات الإلهية بفكرة « الكل المطلق » الذى تفنى فيه الأجزاء . ولم يقل لنا كيف يتوحد هذا الكل المطلق بدون ذات تضم شتاته .

ويدافع المدافعون عن إنكار بوذا للذات الإلهية بأن فكرة الذات الإلهية لا تصدر إلا عن إنسان يتصور أن الله ذات مثله . . والله منزه عن هذا التشبيه .

وينسى هؤلاء المدافعون أن « المطلق » الذى لا يدرى بنفسه والذى لا يعى وجوده هو أقل كمالاً وأحط رتبة من الذات المطلقة التى تعى وجودها .

وأن الوجود الذى لا يشعر بأنه موجود أقل وأدنى فى المرتبة الوجودية من الوجود الذى يشعر بكيانه ووجوده .

ومثل هذا الإله المغمى عليه الذى يسمونه « المطلق » لا يصلح بأى حال لتفسير ما يحدث فى الكون من نظام وانضباط وحكمة .

ثم كيف يخلق لنا « المطلق » بصراً ثم لا يكون هو ذاته بصيراً وكيف يخلق لنا السمع ولا يكون هو ذاته سميعاً ، وكيف يخلق فينا الوعى ويكون هو بذاته بلا وعى .

« والكل المطلق » الذى تصوره بوذا هو مجرد معنى خواء من كل الصفات .

ولم يتقدم بوذا بإلهامه الدينى خطوة على أخناتون أو زرادشت وإنما تأخر عنهما بكثير .

ولا نعرف زمناً محدداً لظهور النبى إبراهيم ، ولم يحفظ لنا التاريخ شيئاً من صحف إبراهيم التى ذكرها القرآن .

وما بقى لنا من تعاليمه أنه كان إمام الموحدين بين العبرانيين ، وأنه نبذ عبادة الشمس والقمر ، ونبذ الأصنام وحطمها ودعا إلى إله واحد هو خالق الشمس والقمر وخالق كل شىء والمنفرد بالفعل والتقدير الذى يبعث بعد موت ويعاقب على الخطايا ويثيب على الحسنات .

« ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ . وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ وَٱلَّذِى أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يوم الدين » .

(الشعراء)

ولكن العبرانيين انتكس حالهم إلى وثنية بدائية بعد موت إبراهيم ، وجاء موسى على بنى إسرائيل ليجدهم عاكفين على الأصنام والطواطم وعبادة الحيوان والأشجار كغيرهم من الأمم الهمجية ، فدعاهم إلى عبادة الإله الواحد الذى سماه « يهوا » .

ولا تذكر لنا المخطوطات الإسرائيلية القديمة التى تروى عن هذه الحقبة شيئاً عن صفات هذا الإله الواحد .

ولا تذكر شيئاً عن البعث والآخرة والحساب والعقاب .

وكان الإسرائيليون يتصورون « يهوا » فى صورة بشرية يأكل ويشرب ويفتك بأعدائه . . وكانوا يتصورون الجنة والنار نعيماً وعذاباً دنيوياً وجزاء فورياً ينالونه على أعمالهم قبل الموت .

ولا يأتى ذكر البعث والآخرة والجنة والنار إلا فى آيات متأخرة من التوراة يتأخر تاريخها إلى مائتى سنة قبل ميلاد المسيح .

ولا نقرأ عن الإله المنزه المجرد عن التشبيه والصفات إلا على لسان أنبياء متأخرين مثل أشعيا .

ولم تترسخ تلك الوحدانية إلا بعد تبشير عشرات الأنبياء الذين لقوا حتفهم ذبحاً وتقتيلاً واضطهاداً من بعد موسى . . ولا نجد أمة حفلت بهذا العدد من الأنبياء . . ضاعت دعواتهم صرخة فى واد . . وذبحوا وصلبوا وشردوا تشريداً . . كأمة اليهود .

ويأتى المسيح فى وقته ليرى أقواماً يعيشون فى غلظة حسية مادية ، فيركز دعوته على الحب والعفو والصفح والزهد فى الدنيا .

أحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك .

أحب قريبك كنفسك .

أحبوا أعداءكم . . باركوا لاعنيكم . . صلوا لأجل الذين يسيئون إليكم . . لكى تكونوا أشبه بأبيكم الذى فى السموات فإنه يشرق بشمسه على الأشرار والصالحين ويفيض برزقه على الأبرار والظالمين .

طوبى للرحماء . .

طوبى للأتقياء . .

طوبى للودعاء . .

طوبى للحزانى . .

طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون .

قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تَزْن . . أما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه .

وسمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن . . أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فأعطه الأيسر أيضاً .

متى قدمت صدقة فلتقدمها فى الخفاء فلا تعرف شمالك ما فعلت يمينك .

لا يقدر أحد أن يخدم سيدين . . كذلك لا يقدر أحد أن يكون فى خدمة الله وفى خدمة المال معاً .

لا تهتموا بما تأكلون ولا بما تشربون ولا بما تلبسون .

انظروا إلى طيور السماء . . إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع فى مخازن . . وأبوكم السماوى يطعمها . . ألستم أنتم أجدر منها .

تأملوا زهور الحقل كيف يلبسها الله أجمل الثياب دون أن تتعب أوتغزل . . وإذا كان الله يفعل هذا بعشب الحقل الذى ينمو اليوم ويطرح غداً إلى التنور . . فما أسهل عليه أن يلبسكم أنتم يا قليلى الإيمان .

ليس كل من يقول يا رب يا رب يدخل ملكوت السموات بل من يحقق إرادة الأب الذى فى السموات .

لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً ولا ثوبين ولا حذاءين افعلوا الخير بلا أجر .

مجاناً أخذتم من ربكم . . مجاناً أعطوا .

إني أريد رحمة لا ذبيحة .

الحق أقول لكم إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من دخول غني إلى ملكوت الله .

ليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان بل ما يخرج من الفم هو الذي ينجس .

من أراد أن يخلص نفسه أهلكها ومن أهلك نفسه من أجلي وجدها . . لأنه ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه . . وأي فداء سوف يعوضه عن خسران نفسه .

من كان عنده من الإيمان قدر حبة خردل وقال للجبل انتقل من مكانك لا نتقل من مكانه .

بهذه الكلمات الصافية المحلقة يخاطب المسيح عليه صلوات الله وسلامه مجتمعاً من المرابين والسفاحين والقتلة قست قلوبهم وغلظت مشاعرهم واشتغل أحبارهم بالربا ونصبوا موائدهم يبيعون ويشترون فى قلب الهيكل .

ويقلب المسيح تلك الموائد ويهتف بهم :

إن بيتي بيت الصلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص .

ويجيب على من يدعوه بالمعلم الصالح قائلاً :

لماذا تدعوني صالحاً . . ليس أحد صالحاً إلا واحد هو الله .

وفي مكان آخر يأمر تلاميذه أمراً صريحاً بالتوحيد نافياً عن نفسه أية شبهة فى الألوهية .

لا تدعو لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحد هو الذى فى السموات .

« الإصحاح ٢٣ من إنجيل متى »

وفى إنجيل لوقا الإصحاح الرابع يخاطب إبليس قائلاً :

« اذهب يا شيطان إنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد » .

رافضاً السجود للشيطان ولو أعطاه ملك الأرض . . ومعلناً سجوده لله وحده .

مرة أخرى نحن أمام موحد عظيم وديانة رفيعة .

* * *

ويتأخر تدوين أقوال السيد المسيح وتعاليمه أكثر من سبعين سنة ، وينشب الخلاف والانقسام حول ما ورد فى الأناجيل عن الأب والابن والروح القدس وحول ما كتب بولس الرسول عن المسيح بأنه « ربنا ومخلصنا » فتظهر مدرسة آريوس الإسكندرى لتقول بأن المسيح بشر اختاره الله نبياً وأوحى إليه وأيده بمعجزاته . . وأنه ليس رباً ولا الهاً . . ويظهر « نسطور » فى سورية ليقول بأن للمسيح طبيعة إلهية . . وأن الله حالٌ فيه . . وتتفرع المذاهب والكنائس والمجامع وتتعدد الآراء . . هل المسيح هو الكلمة أو هو الابن . . وعن من صدر الروح القدس عن الأب أم عن الابن . . فتقرر الكنيسة الشرقية بأن الروح القدس صدر عن الأب وحده وتقرر الكنيسة الغربية بأنه صدر عن الأب والابن معاً .

ويقول الكل بوحدانية الله برغم قولهم بثالوث الأقانيم الأب والابن والروح القدس . . فهم يعتبرونهم ثلاثة فى واحد .

وهو تناقض واضح فهم يجعلون من الله شركة مساهمة من ثلاثة ثم يزعمون مع ذلك أنهم موحدون .

« وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ » .

(١٥ – الزخرف)

فالمسيح عبد من عباد الله والروح القدس عبد من عباد الله ولا يصح أن نجعل من عباد الله جزءاً من الله فنتصور أن الله ثالوث يتكون من الثلاثة .

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ » (٧٣ – المائدة)

« وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ » . (١٧١ – النساء)

« ما اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وما كَانَ مَعَهُ إِلَٰه إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ »

(٩١ – المؤمنون)

هكذا نزل القرآن ليحسم الخلاف وليبين الأمر .

« وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً » .

« فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ » (١٩ – محمد)

« إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ » (٢٢ – النحل)

وهذا هو القول الفصل . . وهذه هى كلمة التوحيد التى أوحى بها الله إلى جميع رسله .

والمسيح برىء مما كتبه كتاب الأناجيل

ولم يكن كتاب الأناجيل شهود عيان لحياة المسيح وإنما كانوا

رواة كتبوا على السماع ماشاع بين الناس بعد سبعين عاماً من وفاة المسيح .

ومع ذلك فالكل يقول بالإله الواحد ويدعى التوحيد حتى أهل التثليث استعانوا بالجدل ليقولو إن الثلاثة واحد

* * *

والنظرة المتعجلة بعد هذا العرض السريع المسلسل لتاريخ الديانات قد تخرج بنا من التشابه الواضح بين الديانات الهمجية والديانات السماوية إلى أن الدين كله جاء من الخرافة ، وأن هذا التسلسل التاريخى حجة عليه بأنه أساطير ، وأنه أولى بالعاقل أن يرفضه جملة وتفصيلاً .

وهى نتيجة خاطئة . . ومن يقول بها أشبه بمن يطالبنا برفض الطب ومنجزاته لمجرد أنه جاء متسلسلاً من فنون الطب البدائى أمثال الدق والكى والفصد والحجامة والرق والتعاويذ التى كان يمارسها الطبيب البدائى . . أو يطالبنا برفض الكيمياء لأنها جاءت من البحث الخرافى وراء إكسير الحياة وحجر الفلاسفة . . أو يطالبنا برفض الفلك لأنه جاء من التنجيم والشعوذة .

والواقع أن هذا التشابه والتقارب بين جميع مراحل نشأة الفكر الدينى هو حجة للدين وليس حجة عليه . . وهو دليل قاطع على أن فكرة الله مغروسة فى الفطرة الإنسانية وأنها فكرة ملحة تطارد الإنسان منذ بدأ يشعر ويفكر . . وأن الحاجة إلى الدين حاجة ثابتة منذ بدء الخليقة ..

والقرآن يعلمنا بأن الله ألهم الإنسان بحقيقة الوحدانية كاملة منذ البداية وأنه ألقى بعلم الأسماء كلها إلى آدم . . ولكن الإنسان كان

ينسى ويقسو قلبه ويغلظ إحساسه وينتكس إلى الوثنية ويحرف التعاليم كلما تقادم عليه العهد . .

ومعنى هذا أن الدين لم يتطور ولم يتكامل مرحلة بعد مرحلة وإنما نزل التوحيد كاملاً منذ البداية وتكرر التذكير به من نبى إلى نبى

أما ما نشاهده من ظواهر تطور العقيدة فهو من عمل العقل والفكر الحر فى محاولته للتعرف على الله دون معونة الأنبياء . .

ومن طبيعة العقل أنه يخطئ ويصيب وأنه يبدأ حسياً ولا يصل إلى التجريد إلا عبر مراحل من الفكر .

ولكن الله لم يترك الأمر لأفكارنا دائما وإنما أبلغنا بالحقيقة من البداية على لسان الأنبياء . . ولكننا كنا نكذب ونعاند ونتمسك بما تقوله عقولنا .

وكان طبيعياً ألا يلقى الله بتلك الحقائق الكلية وحياً إلا لأهل البصائر والأنبياء الذين اكتمل وعيهم وتهيؤهم .

ومن هنا تأتى فكرة الإسلام عن الله الواحد الأحد المتعال الذى ليس كمثله شيء لتكون الذروة والخاتمة لذلك التجريد الخالص لله الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . . الأول والآخر والظاهر والباطن . . الذى يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار . . المتعال على كل ما نتصور من صفات . . عالم الغيب والشهادة . . الذى بيده مقاليد كل شيء . . الأحد . . الصمد . . القيوم . . وتجمع الأسماء الحسنى التسعة والتسعون التى نزلت فى القرآن غاية ما وصلت إليه المعارف الإلهية من تجريد .

* * *

ولذلك نقرأ فى تاريخ الأديان بين الشعوب البدائية تلك الحكاية الطويلة لتطور الفكر الدينى من طفولة العقل البشرى حينما كان العقل طفلاً لا يستطيع أن يؤمن إلا بشيء مادى متجسد يمسكه بيديه إلى أن بلغ غاية نضجة فأصبح يؤمن بالمطلق والمجرد . . بينما نقرأ عن أنبياء نزلوا برسالات سماوية كانوا يمثلون استثناء دائماً من هذه القاعدة . . من نوح إلى إبراهيم إلى إسحاق ويعقوب وإسماعيل ويونس وهود وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام . . كان النبي يأتى ومعه حقيقة واحدة لا تتغير ولا تتطور ولا تتبدل . . إن الله واحد لا إله إلا هو.

كان كل نبي يأتى بتمام التوحيد . يأتى ليذكرِّ وينذر.

كان الأمر هنا مختلفاً . . لأننا لم نكن أمام رجل عادى يجتهد فيخطئ ويصيب . . وانما كنا أمام رجل مؤيد بوحى وملهم من الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا ينطق عن الهوى . . وإنما كل ما ينطق به هو مراد الله وبعض علمه الذى يلقيه إلى الناس . . ولهذا ظلت الديانات السماوية جسماً واحداً وكلمة واحدة وعقيدة واحدة . . وهى عندنا جميعاً اسمها الإسلام . . مسيحية كانت أو يهودية .

أما ما سوى ذلك من عقائد فهى اجتهاد العقل الذى يخطىء ويصيب وتصور الأهواء التى تختلف باختلاف المصالح .

والقرآن وإن كان قد جاء بالذروة فى المعارف الإلهية إلا أنه قد جاء بالتوحيد ذاته الذى جاء به نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وبالعقيدة ذاتها لا إله إلا الله . .

يقول عيسى . . ما جئت لأنقض الناموس بل لأكمله .

فلا تبدل ولا تطور فيما جاء به أنبياء السماء .

وإنما كان للأديان تاريخ وتطور عند الإنسان العادى الذى كافح بعقله وقطع الطريق إلى الله اجتهاداً . . معتمداً على مواهبه الذاتية التى تخطئ وتصيب .

ولذلك نرى مصلحاً دينيًّا عظيماً مثل أخناتون يخطئ فى تصوره لله برغم عبقريته الفذة فيقول فى ختام نشيده مخاطباً الله :

أنك فى قلبى .

وليس هناك من يعرفك .

غير ابنك الذى ولد من صلبك .

ملك مصر العليا والسفلى .

وسيد الأرضين أخناتون .

فهو قد وقع فى الخطأ الشائع بأنه ابن الله الذى من صلبه . . برغم بصيرته الشفافة ووجدانه المحلق .

ونرى مصلحاً دينيًّا عظيماً آخر مثل بوذا يتصور الله وجوداً مطلقاً لا ذات له . .

وهذا شأن العقل دائماً حينما يتخذه الإنسان دليله .

إن غاية ما يقدمه فى طريق البحث عن الله . . محاولات . .

وقد تركت لنا تلك المحاولات تاريخاً وحكاية طويلة لنشأة الفكر الدينى هى ما رويناه .

أما أنبياء السماء فقد أخذوا معارفهم من نبع آخر لا يخطئ وجاءوا بعلمهم وحياً . . ولهذا قدموا إلينا الحقيقة الدينية خالصة مكتملة . .

واتفقوا جميعاً برغم تباعد عصورهم . . وكانت كلمتهم . . أنه لا إله إلا الله دائماً وأبداً وأزلاً ومطلقاً . . وأنه لا تبديل ولا تغيير لهذا الأمر .

وبرغم ما عرضنا من فلسفات وجدل ونظريات تظل قضية الدين قضية إحساس بالدرجة الأولى . . قضية « وعى كونى » كما يقول كاتبنا عباس العقاد . . قضية رؤية شمولية ونظرة شمولية تصدم العقل فيؤمن ويشعر بالحقيقة المهيمنة حوله وفوقه وتحته وعن يمينه وعن شماله . . فهو يرى الله فى نظام الكون وجماله . . وفى انسجام نفسه وجمالها وفى الشعور بالقداسة والروعة الذى يلم به كلما سجى عليه الليل وبرقت النجوم فى عليائها .

وهو شعور يجعلنا فى علاقة منسجمة مع الدنيا بينما يمزقنا الإلحاد ويبعثرنا أشلاء ويبتر ما بيننا وبين الدنيا من وشائج . . بل ويمزق نفسنا ذاتها إلى نقائض تصارع بعضها بعضاً بدون جدوى .

ومن أدلة صدق الدين هذا الاضطراب والقلق الذى يعانيه الملحد وما يعتريه من انقباض وعزلة وسوداوية وتمزق بعكس اطمئنان المؤمن وانسيابه مع الحياة فى انسجام ومحبة وثقة بالمستقبل .

ولهذا السبب عينه . . ولأن الشعور الدينى شعور وجدانى قبل أن يكون عقليًا نرى مقدم الأنبياء يأتى سابقا فى التاريخ على مقدم الفلاسفة الباحثين فى الله .

لأن الأنبياء هم أهل البصيرة .

والفلاسفة هم أهل الفكر . .

ودور الفكر يأتى دائماً فى المحل الثانى فى قضية الدين .

ومع ذلك ولو كنا من أهل الفكر لا من أهل البصيرة وآثرنا أن نناقش قضية الله بالعقل . . فسوف نجد تراثاً من الفكر رافق الإنسان منذ بدأ يفكر وآلافاً من الكتب ومئات من الفلسفات والنظريات وجيشاً من المفكرين . . لا هم لهم ولا شاغل سوى قضية الله وما وراء الطبيعة .

ولا يمكن أن يدور كل هذا الكلام على وهم أو أن يكون لغواً فارغاً يبحث فى لا شىء .

ولا يمكن أن يُجمع الألوف من أهل الدين والفكر على الأنشغال بمسألة واحدة عبر عصور متباعدة ثم يكون إجماعهم ملفقاً مزوراً .

بل الحقيقة الإلهية مغروسة فى الإنسان غرساً منذ مولده .

والضمير بما فيه من خير وحق وجمال وبما فيه من مقاييس مطلقة نتخذ منها معياراً للحكم على الأشياء . . هو أحد الشهود العدول على ما أودعه الله فى الفطرة مما لا يمكن تفسيره بالمادة أو الجزيئات أو الذرات .

والذين يقولون بأن الضمير ما هو إلا تراكم عادات الماضى وأعرافه وتقاليده الاجتماعية عليهم أن يفسروا لنا . كيف استطاع أصحاب الضمير الفذ وأرباب البصائر أن يغيروا المستقبل ويقدموا للإنسانية رؤيا تتقدم عصرها بمئات السنين .

كيف استخرجوا من هذا الضمير الذى يقول المفكرون الماديون إنه أرشيف الماضى وجثته المحنطة كل هذا النور وهذه الرؤى المستقبلية .

ولا تفسير إلا أننا أمام ظاهرة متعالية مصدرها من المتعال فى الأبد . .

وليس من تراكم خزعبلات الماضى وتقاليده .

أننا أمام الله . .

أمام حقيقة الحقائق .

والتماس البراهين على وجود تلك الحقيقة فضول لا مبرر له ، فهى بذاتها البرهان الوحيد على أحقية أى شىء .